الأزهر والاصلاح

للأستاذ محمود الشرقاوى

سيقول كثير من إخواننا الأزهريين حين يقرأون هذا الذى أكتب عن الأزهر والإصلاح : لماذا وله ؟.

سيقول كثير من هؤلاء لماذا كتب هذا ومن يريد بكذا وماذا يقصد بكذا ؟ لأنهم لا بد — فى اعتقادهم — أن يكون لكل شىء ظاهر وباطن ، ولا بد أن يكون وراء كل عمل أو قول أمر مستور يُسأل عنه بماذا وله .

فهم يقولون فى علومهم ودروسهم لماذا وله وماذا يراد بكذا وهذه محمدة ، وهم يقولون عند ما يرَون لأحد رأياً أو سمياً لماذا وله وماذا يراد بكذا ، وهذه مذمة .

وأعلم أن كثيرين منهم سيقولون لماذا أو له ، وهم يعلمون أن هذا الذى أكتب اليوم قد بدأته قبل أن أبدأ سن العشرين .

وإنى كتبته فى السياسة والسياسة الأسبوعية منذ عشرين من السنين ، وأن الأزهر وإصلاحه كانا شغلى وشاغلى منذ أجريت قلمى على قرطاس ، وإنى دأبت عليه وكان وكدى فى « الرسالة » أول ما ظهرت الرسالة إلى هذا الوقت القريب وفى « البلاغ » ثمانى سنين دأباً .

هؤلاء الكثيرون يعلمون ذلك وقد يعلمون غيره ، ولكنهم سيقولون لماذا كتب هذا وماذا يريد وماذا يقصد ؟

ولكن هذا التساؤل وهذا التأويل وهذه الظنون حسنة أو سيئة ، طيبة أم خبيثة ، لن تحول بينى وبين أن أكتب ما أريد ، ولن تمنعنى أن أقول ما تجيش به نفسى عن الأزهر وإصلاحه .

والذى أريد أن أقوله إن الأزهر لم يصلح ، وأن بينه وبين الإصلاح شأواً بعيداً وبوناً واسعاً ومرحلة طويلة جداً ، ولست أدرى هل إلى هذا الإصلاح سبيل ؟

وأنا حين أزعم أن الأزهر لم يصلح لا أريد أن أتوجه بهذه التهمة إلى أحد ولا إلى عهد ، فالواقع أن الأزهر قد التوت به وبأهله سبيل الإصلاح وبعدت بهم عن أهدافه ومراميه ؛ والواقع الذى هو

مكان يؤاكل المنبوذين أو يعانقهم ، حتى يشجع غيره من الهندوكيين على أن يتشبهوا به ويحسنوا معاملتهم . إلا أنه لم يقدر أن يقضى نهائياً على اضطهادهم المنبوذين . ولكن حين قبلت الهند سنة ١٩٣٥ المشروع الإنجليزى الذى ينص على خضوع البلاد لحكم نيابى مؤلف من مجلسين أحدهما تشريعى والآخر للمقاطعات، تكون الحكومة مسئولة أمامهما ، ثم بدىء فى توزيع المناطق الانتخابية لتأليف هذين المجلسين النيابيين ، طالب المنبوذون بمناطق انتخابية منفصلة . فأيدهم الإنجليز فى هذا الطلب ؛ إلا أن غاندى رفضه مصرحاً بأن اعطاءهم مثل هذه المناطق يعقد مشكلة المنبوذين ويجعل حلها عسيراً ، ويقضى ببقائهم على ما هم عليه من ذل وهوان ، وهذا فضلا عن أنه يزيد الشقاق بين الطوائف الهندية ، ويقوى الخلافات الدينية التى تشكو منها الهند ، وأعلن الصوم حتى الممات . وما كاد يمضى سبعة أيام على صيامه حتى انتهى الخلاف بتسوية تسلم بانتخاب المنبوذين فى مناطق الهندوكيين ، على أن يكون لهم عدد معين من المقاعد فى المجالس الإقليمية التشريعية .

وإذا حاولنا أن نتكلم عن كل صيام صامه غاندى ، استعرضنا مختلف مشاكل الهند الحديثة سواء أكانت اجتماعية أو سياسية أوطائفية أو دينية ، لأن غاندى لم يترك مشكلة لم يتعرض لحلها ، فإذا ما أحس أن هناك مشكلة ستحل بطريقة تتعارض مع مصلحة الهند والهنود فإنه يتفادى مقدما نتائجها الوخيمة ، ويعلن الصوم حتى تحل هذه المشكلة حلا يقع نفعه على الهند ، أو إذا ما تصادم المسلمون والهندوكيون أو اندلعت نيران الثورة الطائفية ، وهاجت النفوس ، أكثر واشتدت المجازر فإن صيامه يبعث الذعر فى قلوب ملايين الهنود مما يبعثه وابل من القنابل ، فيضع حداً للمذابح ، ويسكن النفوس الهائجة ، ويستحيل بفضله الحقد إلى حب . وذلك كله يؤكد زعمنا بأن غاندى أخرج التعاليم الدينية من عالم المعابد إلى عالم الحياة الواقعة ، وأعطى الصوم الدينى حقيقة عملية ، وجعل له وظيفة نافعة فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، واتخذ منه سلاحاً يقوم به أخلاق الناس ، ويهدىء من هياجهم ، ويمحو الحقد والبغضاء من قلوبهم .

عبد العزيز محمد الزكي
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأميرية بكفر الزيات

أعجب من هذا كله أن الحديث عن الإصلاح في الأزهر حديث لا يصغى إليه أحد ولا يشتغل به أحد من قريب ولا من بعيد . وليس هـذا شيئاً جديداً بل هو شيء يمتد إلى سنين مضت غير قليلة ، وقد جرى بيني وبين المرحوم الشيخ المراغي حديث في هـذا منذ سنين اعلى راجع إليه في « الرسالة » في يوم قريب أو بعيد ، ويوم أعود إلى هذا الحديث سيعلم من لم يكن يعلم أن إصلاح الأزهر لم يشتغل به أحد ولم يفكر فيه أحد . اللهم إلا التفائلين والمثاليين (١) والخياليين الذين يعيشـون بين الأماني والأحلام ، وقد عشـنا بها زمناً رغداً ، ثم ذهبت عن أعيننا الغشاوة .

مني إن تكن حقاً تكن أعذب المنى

وإلا فقد عشـنا بها زمناً رغدا

كان المصلحون يرغبون أن يكون الأزهر قواماً على نهضة دينية أساسها الفهم والإدراك وسعة الأفق حتى يقاوم بهـا ما ينتاش العالم كله من إباحية والحاد وتهجم على فكرة الدين وعلى مجرد الإيمان ، وكانوا يرغبون أن توجد في الأزهر هذه البيئة الدينية المؤمنة المدركة لما يقع فيه العالم كله اليوم من أزمة روحية يحسها كل رجل مستنير ويدرك خطرها على القيم الروحية وعلى الأديان كافة ، فإن توجد في الأزهر هذه البيئة الدينية المدركة فسينهض منها لا محالة من يحول بين هذه العواصف العاصفة بالإيمان وبالقيم الروحية أن تنزع من صدور الناس وأن تذهب هذه العواصف بما بقي في هذه الصدور من إيمان .

وكانوا يرغبون أن توجـد في الأزهر بيئة علمية مدركة مستنيرة تخرج للناس هـذا التراث العلمي الإسلامي الفريد ، فتجلوه لعيونهم وأفهامهم ، وتبرز هذا الركاز العظيم المطمور من علوم العرب والمسلمين في كل فن وعلم ، هؤلاء يدرسون هذا التراث بعقولهم المدركة المستنيرة ، فيظهرون الناس على ما فيه من عمق ومن سعة ومن دقة ومن شمول ، وهؤلاء يبرزون هـذا الركاز المطمور بما ينشرون ويخرجون من كتب ومن مذاهب وآراء ومن شروح وفهارس ومن تبويب .

وكانوا يرغبون في أن يخرج الأزهر للناس طائفة من العلماء منيرة عقولهم شـجاعة أفئدتهم « يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس ، ويعلمون — كما يقول الأستاذ الزيات — تزييف « الأباطيل المقدسة » التي اتسمت بسمة الحق وتسمت باسم الدين » (١)

وكانوا يرغبون في أن يخرج الأزهر للناس طائفة من رجاله يكونون للناس مثلا في كرم الخلق والحرص على أداء الواجب والزهد في زخرف الحياة وما يطمع الناس فيه من مجد ومن مال ومن صدارة .

طائفة من الناس شعارهم المحبة والتسـامح والمودة وكرم النفس والترفع عن الصغيرة والشجاعة في الحق وعفة القلب واليد واللسان ، يجعلون خير الناس مقدماً على خير أنفسهم ، والعمل للناس قبل العمل لذواتهم وأشخاصهم وأطماعهم .

طائفة من الناس تقوم حياتهـا على الإيثار والتضحية ، والنصيحة بالعمل قبل القول وبالمثل والقدوة قبل الدعوة والتمثيل

طائفة من الرجال يحسون ويدركون علة هذه الأمة الإسلامية وأسباب جمودها وتخلفها وجهالة العوام فيها وتواكلهم وضعف إيمانهم وانصرافهم عن المفيد النافع من شؤون الحياة ، واستهتار الخواص وأنانيتهم وجحودهم ، ويعملون على خلاص هذه الأمة الإسلامية مما هي فيه من جمود ومن جهالة ومن أنانية وجحود .

هذا هو الإصلاح للأزهر وهذه سبيله .

فهل أنا مخطىء إذ أقول إن الأزهر لم يُصلح !..

وهل أنا متشائم إذ أقول متسـائلا إن بين الأزهر وبين الإصلاح شأواً بعيداً وبوناً واسعاً ومرحلة طويلة جداً ، وإني لست أدري هل إلى هذا الإصلاح سبيل ؟ . .

أما الخطأ فأعتقد أني لست مخطئاً ، ولا أعتقد أن أحداً يرى غير ما أرى وهو منصف مدرك .

وأما التشـاؤم والتفاؤل فليس عندي عليهما جواب ، وقد تجيب عني الحوادث والأيام .

محمود الشرقاوي

(١) كان الصديق الأستاذ الزيات في يوم من الأيام متفائلا أيضاً أنظر مقال « هل انبعث الأزهر ؟ » في صدر العدد ٤٠٨ من الرسالة « ٢٨ ابريل سنة ١٩٤١ »

(١) مقال « هل انبعث الأزهر